

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى

وهي: سورة مكية، تركّز بشكل واضح على قضية الوحي والرسالة.

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَىٰ ۝٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ
 يَتَفَضَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
 أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَىٰ ۝٢﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وإثارة انتباه الإنسان
 بحروف أولية، وبدء غير مألوف ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾.
 ﴿اللَّهُ﴾ عز وجل، الموصوف بهذه الصفات:

الأولى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، الغالب بقدرته.
 الثانية: ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعته، وأقواله، وأفعاله.
 الثالثة: المالك لكل شيء ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا
 وعبيدًا وتدييرًا.

الرابعة: وهو ﴿الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن مشابهة الممكنات والحوادث.
 الخامسة: ﴿الْعَظِيمُ﴾ القاهر بالاستعلاء وكمال الإلهية.
 السادسة: له الهيبة ﴿تَكَادُ السَّمٰوٰتُ﴾ من علو شأن الله وهيئته ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ يَتَشَقَّقْنَ
 ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: بعضها فوق بعض.

السابعة: له الحمد ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لِمَا لَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ مِنَ الْجَلَالِ والكبرياء ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿أَلَا﴾ ﴿حَقًّا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الموصوف بهذه الصفات، الذي يوحى إليك ﴿هُوَ﴾ كذلك: ﴿الْعَفُورُ﴾ لأوليائه، وهذه: هي الصفة الثامنة.

التاسعة: ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، والذي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، سبحانه وتعالى. هذا: هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي يستحق أن يُعْبَدَ وحده، وأن لا يُعْبَدَ سِوَاهُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة لهم وعبدوهم: لست مكلِّفًا بإجبارهم على الإيمان، ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أقوالهم وأفعالهم، وسيجازيهم عليها، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ إنما أنت نذير لهم فقط. وبعد أن بيّن الله عز وجل أنه أوحى إلى الأنبياء من قبله، يقول له:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد.

وكان وحينا لك ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان قومك، وذلك: ﴿لِنُنْذِرَ﴾ وتخوف أهل ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلاد الأقرب، فالأبعد، ثم الأبعد، حتى تصل دعوتك للدنيا كلها.

ولكن: بماذا تنذر، وتخوف؟ الجواب: ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: تنذر بعذاب يوم الجمع للخلائق، وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا في وقوعه. وساعتها: يكون الناس ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم ﴿فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ﴾ آخر منهم ﴿فِي السَّعِيرِ﴾ كلٌّ على حسب إيمانه وعمله؛ حيث إنهم مختلفون في الإيمان بالله، والاستعداد للقاءه سبحانه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

نعم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ جميعاً ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مهتدين، أو ضالين ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك؛ لحكمة يعلمها هو سبحانه، ولله الحكمة البالغة في كل شيء، وبهذا ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ في الإسلام، ويجعله ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ ويدخله جنته، ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الذين اتخذوا من دونه أولياء: يضلهم عن الهدى، ويدخلهم النار، وعندها ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يشفع لهم ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يدافع عنهم.

ثم ينكر ربنا عز وجل على هؤلاء الظالمين اتخاذهم أولياء من دونه، فيقول جل وعلا:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩)

يعني إن أرادوا اتخاذ ولياً حقاً!!! فليس هناك سوى الله عز وجل، حيث ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ بحق، ولا ينبغي أن تكون العبادة إلا له وحده، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي ﴿يُحْيِي الْمَوْتِ﴾ ولا يفعل ذلك سواه، ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وليس ذلك لأحد غيره سبحانه.

أيها الأحبة في الله.. !!

فهمنا الآن: أن هناك فريقين يختلفان، ومن المعلوم: أنه لا بد عند كل خلاف من حاكم وحكم!!، والحاكم بالطبع: هو الله، ولا حكم إلا منه، لذلك يقول الله تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١١)

يعني ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ﴾ أي: ﴿شَيْءٍ﴾ وأي أمر من الأمور: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، أي: بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، يفصل فيه الفصل الحق، ويحكم فيه الحكم العدل، قل لهم يا محمد: ﴿ذَلِكُمُ﴾ الحاكم العادل:

أولاً: هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي لا إله سواه.

ثانياً: وهو ﴿رَبِّي﴾ الذي لا رب سواه.

ثالثاً: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع الأعداء، وطلب كل خير.

رابعاً: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع له في كل المهمات، استخارة، واستعانة، وتوبة واستغفارًا.

وهو: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾
لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني ذلكم الله ﴿فَاطِرُ﴾ خالق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما بينهما، وما فيهما، ومن فيهما، ولا يقدر على ذلك غيره، وهذا خامساً.

سادساً: ﴿جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم؛ تفضلاً عليكم ﴿أَزْوَاجًا﴾، ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].
﴿يَذُرُّكُمْ﴾ يكثركم، ويزيد من أعدادكم ﴿فِيهِ﴾ في هذا التزاوج، ولا يقدر على ذلك سواه، ولا يعلم الحكمة من ذلك إلا هو سبحانه.

سابعاً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: كهو، أو كذاته، ﴿شَيْءٌ﴾ سبحانه وتعالى.

ثامناً: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الموجودات.

تاسعاً: وهو ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع الموجودات.

عاشراً: ﴿لَهُ﴾ وحده سبحانه ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو المالك والحافظ لأمرهما، ومن فيهما.

الحادي عشر: ﴿يَبْسُطُ﴾ عز وجل ﴿الرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق ويوفر من يشاء كذلك من عباده.

ثاني عشر: ﴿إِنَّهُ﴾ جل جلاله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من التوسعة والتضييق ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو يعطي من يشاء بعلم، ويمنع عن من يشاء بعلم، سبحانه وتعالى جل شأنه.

هذا الإله العظيم هو الذي:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

نعم إن ما ﴿شَرَعَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ هو ﴿مَا﴾ شرع، و ﴿وَصَّى بِهِ نُوْحًا﴾ وهو نفسه ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿و﴾ هو ﴿مَا﴾ شرعنا ﴿وَصَيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ عليهم جميعاً الصلاة والسلام، هذا الذي شرعه الله من الدين هو ﴿أَن أٰمِنُوا الدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام، يعني: عدلوا أركانها، وواظبوا على العمل بأحكامها، وحافظوا من أن يقع فيه زيغ، ﴿و﴾ كذلك ﴿لَا تَنفَرُقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا حول عقائده، وتعاليمه، وأحكامها؛ حيث إن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، لذلك ﴿كَبُرَ﴾ وعَظُمَ ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ وشقَّ عليهم ﴿مَا نَدَّعَوْهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة الإسلام، والوحدة فيه وبه، على أية حال: ﴿أَلَنَّهُ﴾ عز وجل ﴿يَجْتَنِي﴾ ويصطفي ﴿إِلَيْهِ﴾ لتوحيده، وعبادته ﴿مَن يَشَاءُ﴾، ﴿و﴾ كذلك ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ﴾ أي إلى طاعته ﴿مَن يُنِيبُ﴾ ويميل إليه سبحانه.

ولكن، إذا كان الله عز وجل قد أمر الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، وهو إسلام الوجه لله!! فلماذا نجد الناس والأمم متفرقين، كما هو مشاهد في دنيا الناس؟
الجواب من الله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٤)
يعني هذا التفرق ليس لعدم وضوح الحق، أو قصور في تبليغه لهم، ولكن ﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً، وطلباً للرياسة، وإعراضاً عن الحق، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة: ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب الكافرين منهم في الدنيا، هذا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد جيل الخلاف الأول، وهم اليهود والنصارى: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من الإسلام ﴿مُرِيبٍ﴾ أشد الحيرة والقلق.

وابتعاداً عن هذا التفرق، وإنقاذاً للأمة من هذا الاختلاف يأمر الله النبي ﷺ، وهو القدوة بقوله عز وجل:

﴿فَبِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ

لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
﴿فَلِذَلِكَ﴾ التفرُّق والخلاف الذي وقع فيه الآخرون، عليك بالآتي:

- أولاً: ﴿فَادْعُ﴾ الناس لهذا الدين، والإيمان به، والعمل بتشريعاته، والاجتماع عليه.
ثانياً: ﴿وَأَسْتَقِمْ﴾ أنت عليه، قدوة لهم ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾ من ربك.
ثالثاً: ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، التي بسببها اختلفوا.
رابعاً: ﴿وَقُلْ﴾ للدين كله ﴿ءَامَنْتُ﴾ وصدقت ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، لا نفرق بينهم.
خامساً: ﴿وَقُلْ﴾ ﴿أُمِرْتُ﴾ من ربي ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم.
سادساً: ﴿وَقُلْ﴾ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ كلنا عبيده، ولا إله يعبد بحق سواه.
سابعاً: ﴿وَقُلْ﴾ ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ وكل مؤاخذ بعمله.
ثامناً: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المعاندين ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأن الحق أصبح واضحاً، ولا حاجة إلى جدال حوله.

- تاسعاً: ﴿وَقُلْ﴾ ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة للحساب.
عاشرًا: ﴿وَقُلْ﴾ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع؛ فيفصل بيننا، ويتقّم منكم.
قالوا: ليس لهذه الآية نظير في القرآن إلا آية الكرسي، من حيث اشتمالها عشر جمل مستقلة، كل واحدة منفصلة عن أختها، وهي حكم برأسها.
ولأن الدعوة الصافية إلى الله تعالى: تلقى الاستجابة!! ولأن الكافرين سيحاولون صدّ المؤمنين عن هذه الاستجابة!! فقد قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٦﴾

أي: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يجادلون المؤمنين ﴿فِي اللَّهِ﴾ دين الله، وهو دعوة الإسلام؛ ليصدوهم عن سلوك طريق الهدى، واتباع محمد ﷺ، هؤلاء: ﴿جَحَنَّهُمْ﴾ جدالهم، وعللهم، ومناقشاتهم ﴿دَاحِضَةً﴾ باطلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ولا وزن لها، ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ في الوقت ﴿غَضَبٌ﴾ من الله، بسبب كفرهم، وجدالهم بالباطل، وصدّهم الناس عن الهدى، ﴿وَأَيْضًا﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة.

ولمّا تقرّر هذا التحذير من الجدل في دين الله بالباطل، والعمل على صد الناس عن الإسلام!! خوف الله من يفعل ذلك بعذاب يوم القيامة، فقال عز وجل:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿٧﴾
 ﴿اللَّهُ﴾ عز وجل هو ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، أي: كل الكتب على الأنبياء ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي شرعه لعباده، وفرضه عليهم، وبيّن فيه مصالحهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَ﴾ كذلك هو الذي أنزل ﴿الْمِيزَانَ﴾ ليسود العدل، وينال كل واحد ما يستحق، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ بوقت الساعة إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يعلم وحده وقت قيامها، على أية حال ﴿لَعَلَّ﴾ مجيء ﴿السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

لهذا، وبعد أن أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بشرعه، فاعملوا بالكتاب والعدل، قبل أن تقوم الساعة، ويفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

ولكن!! ومع هذا التحذير!! فهناك من يستعجل عذاب يوم القيامة استهزاء وكفراً وعناداً.. نعم:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٨﴾
 أي: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ﴾ كفروا، وهم الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ ويقولون مستهزئين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

﴿وَ﴾ أما ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وباليوم الآخر فهم مؤمنون بها، و ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ أي: من عذابها، ولا يستعجلونها، ﴿وَ﴾ ما ذلك منهم إلا لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة، ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون في وجودها، وينكرون وقوعها ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿بَعِيدٍ﴾ لانكارهم عدل الله وحكمته.

لذلك: على الإنسان أن يعمل للآخرة، وأن لا يعمل للدنيا فقط معرضاً عن الآخرة؛ ظناً منه أنه بذلك يحصل رزقاً، أو اعتقاداً منه أن العمل للآخرة يمنع أو يقلل الرزق، فالرزق مضمون، والعمل للآخرة غير مضمون.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿اللَّهُ﴾ تبارك وتعالى ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ يوصل لهم المنافع، ويدفع عنهم البلاء. ومن مظاهر لطفه أنه ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيوسع على هذا، ويضيق على ذاك؛ حسب علمه بمصالح عبادِهِ، وبما هو أنفع لهم، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجزه شيء.

لذلك: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ثوابها ويعمل لها ﴿نَزِدْ لَهُ فِي﴾ ثواب ﴿حَرْثِهِ﴾ أي: عمله، حيث نجازيه على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي: من كان عمله للدنيا فقط، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما قُسم له فقط، لا ما يريده هو، ﴿و﴾ قد خسر، حيث ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ وثوابها ﴿مِنْ نَصِيبٍ﴾ ينفعه في يوم لا ينفع فيه ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وبعد أن بين الله عز وجل ميزة كتابه الذي فيه شرعه، وضرورة العمل به، وخطورة الانحراف عنه!! يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتباع شرع غير شرعه، فيقول جل وعلا:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يعني أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ آلهة ﴿شُرَكَاءُ﴾ الله، فيما يزعمون ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ الفاسد ديناً آخر، وهو ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ ويشرعه لعباده كالشرك، وإنكار البعث؟ لقد ساروا وراء أهوائهم، واتبعوا ضلالاً، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ﴾ الوعد، بـ ﴿الْفَصْلِ﴾ والجزاء يكون في يوم القيامة ﴿لَفُضِيَ﴾

بَيْنَهُمْ ﴿٢٢﴾ ونزل بهم العذاب الآن، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك حين تقوم الساعة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ الذين كفروا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من جزاء عملهم السيئ، وهو العذاب، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لا محالة، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهم آمنون مطمئنون ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ وهي أطيب بقاعها وأماكنها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الطيب للمؤمنين ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ من الله سبحانه وتعالى.

و ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الطيب للمؤمنين هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ويؤكد لهم أنه واصل لهم، وبعد هذا التوضيح: ﴿قُلْ﴾ للمكذبين المعاندين ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا الإسلام الذي أدعوكم إليه، وهو الموصل إلى هذا الفضل الكبير ﴿أَجْرًا﴾ أتقاضاه منكم، ولكني أسألكم حسن الاستماع، والتقبل و ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً﴾ خالصة لله ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعف له أجرها وثوابها، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أساء وتاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع.

ثم يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتهام المشركين لرسول الله ﷺ، بالكذب على الله، فيقول جل وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افترى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك ويمح الله البطل ويحوق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴿٢٥﴾﴾

يعني أصدقونك فيما أنزل من القرآن ﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ﴾ عليك إنه ﴿أَفْتَرَى﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يتلوه علينا، ويخبرنا به على أنه أوحى به إليه، لو كان الأمر كما يدعون!! ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فينسبك القرآن ويقطع عنك الوحي، ولكنه لم يفعل!! وبالتالي: فأنت صادق، وعلى كل حال: دعهم يقولون، ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ كله، ومنه افتراءهم عليك، ﴿وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ التي أنزلها ووعد بها في كتابه، حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وما تُكِنُّه الصُّمُورُ.

وبعد أن برأ المولى رسوله ﷺ من هذا القول الشنيع، الذي يستحق قائله العقاب ندب إلى التوبة، فقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ يعني توبوا إلى الله، وكُفُّوا عن الكذب عليه، ومحاربة رسوله، وإيذاء أتباعه يغفر لكم، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا تابوا إليه، وأقلعوا عن خطاياهم، وأصلحوا أمورهم ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ التي وقع فيها المرء، قبل توبته عنها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ فيجازي من يشاء، ويتجاوز عمن يشاء، بحكمة منه سبحانه وتعالى وإتقان.

ولمَّا ندب الله إلى التوبة: بَيَّنَّ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ، فقال جل وعلا:

﴿وَلَسْتَ جِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

أي: ﴿وَلَسْتَ جِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لدينهم فيما دعاهم إليه، ويطيعونه فيما أمرهم به، ﴿وَلَسْتَ جِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لذلك ﴿يَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ فوق ما طلبوا، وما يستحقون، ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ فلا يستجيبون، و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لَمَّا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَجِيبُ دَعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْهُمْ، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ!!

فلماذا قد يكون المؤمن في شِدَّةٍ وبليَّةٍ، أو فقر ومجاعة، ثم يدعو ولا يرى أثر الإجابة؟
الجواب:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ
رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

حقًا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ جميعًا، وأغناهم ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾
على بعضهم البعض، وظلموا، وتكبروا، ﴿وَلَكِنْ﴾ يعلم سبحانه أحوالهم، وما
يصلحهم لذلك ﴿يُنْزِلُ﴾ لهم الرزق ﴿بِقَدَرٍ﴾ حسب ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ وتقضيه حكمته
عز وجل، حيث ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «إن من عبادي من لا يُصلحه إلا الغنى، ولو
أفقرته لفسد حاله، وإن من عبادي من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله».

وفي رواية: «لأفسدت عليه دينه».

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ المطر للناس، وقت حاجتهم إليه ﴿مِنْ
بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ يئسوا من نزوله إليهم، وذلك: لحكمة يعلمها هو عز وجل، ﴿وَهُوَ﴾
هو سبحانه الذي ﴿يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الواسعة على جميع خلقه، ﴿وَهُوَ﴾ هو سبحانه
﴿الْوَلِيُّ﴾ المحسن للمؤمنين ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود الذي يحمده أهل طاعته.

وكل ذلك: يدل على قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته.

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالى آيات تدل على ألوهيته ووحدانيته، فيقول جل جلاله:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ
إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الكثيرة، الدالة على ألوهيته، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته
﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على هذا النحو الفريد البديع، ﴿وَهُوَ﴾ كذلك خلق ﴿مَّا
بَيْنَهُمَا﴾ نشر وفرق ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ على اختلاف أنواع الدواب وأحجامها

وأشكالها.. إلخ، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ في يوم الحشر ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد.

هذا، ﴿وَ﴾ اعلّموا:

أولاً: أنه ﴿مَا أَصْبَحْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿مَنْ مُصِيبَةٍ﴾ مكروه، أو شدة، أو بلية، أو فقر، أو مرض.. إلخ ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من الذنوب، وهذا تكفير له.

ثانياً: ﴿وَ﴾ أنه سبحانه وتعالى ﴿يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ من ذنوبكم، فلا يؤاخذكم بها، بل يعفو عنها.

ولذلك قيل: هذه أرجى آية في القرآن؛ لأن الله عز وجل لا يجمع على عبده بين عقوبتين، ولا يعاقب على ما سبق، وإن عفى عنه.

ولمّا بشر المؤمنين وطمأنهم، خوفاً الكافرين، فقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ يا مشركون ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بهاربين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من عذاب الله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يدافع عنكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم ويمنع عذاب الله عندما ينزل بكم.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى كذلك:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الكثيرة أيضاً: هذه ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن، التي تسير ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ كالأعلام!!

ثم، ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ يوقف الريح عن تسيير هذه السفن، أسكنها وأوقفها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ في مكانهن واقفات، ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر الماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ على نعمائه.

وعلى هذا: ينبغي أن يكون حال المؤمن على البلاء من الصابرين، ومع النعماء من الشاكرين.

﴿أَوْ﴾ إن يشأ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ يهيج الريح، فتعصف بالسفن، و ﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾ يهلكهن غرقاً ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: أصحابها من الذنوب، ﴿و﴾ هو سبحانه الذي ﴿يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ من ذنوب عباده، فلا يجازي ويؤاخذ عليها.

ثم يقول تعالى مهدداً لمن لا يعتبر بآياته سبحانه:

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْدِلُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَّجِيصٍ﴾ (٣٥)

أي: ﴿و﴾ ينبغي أن ﴿يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْدِلُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا﴾ هذه وغيرها، ولا يعتبرون بها، فيؤمنون أنه ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَّجِيصٍ﴾ ولا مهرب من عذاب الله، بسبب جدالهم هذا، وكفرهم الناتج عنه، أو كفرهم وجدالهم الناتج عنه.

وبعد أن ذكر ربنا تبارك وتعالى من دلائل التوحيد ما ذكر، أتبع ذلك بتحقيق ما يصرف عن الاعتبار والإفادة من هذه الدلائل، وهو الانبهار والانشغال التام بمتاع الدنيا، فقال:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَمَاعِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦)

يعني ينبغي أن لا يصرفكم شيء عن توحيد الله، وعبادته، وبخاصة ما كان من أمر الدنيا، وإلا ﴿ف﴾ إن ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أي: ما آتاكم الله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير ﴿ف﴾ هو من مَتَاعِ ﴿الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ الزائل، الذي لا ينبغي الاغترار به عن توحيد الله، ولا الانشغال به عن عبادة الله، ﴿و﴾ أما ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب والنعيم فهو ﴿حَيْرٌ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَبْقَى﴾ منه؛ لأنه أبدي غير زائل ولا منته، ولكن لمن هذا النعيم والثواب الأبدي، الذي عند الله تعالى؟

وهنا يكون الجواب الواضح بتحديد صفات جماعة المسلمين، وبالميزان الذي تتعرف به عليهم، وتتخلق معهم بأخلاقه، إنهم الذين يقول عنهم ربهم: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ حيث حدد المولى عز وجل من صفاتهم ما يلي:

الصفة الأولى: أنهم ﴿ءَامَنُوا﴾ بربهم، واتبعوا نبيهم، والتزموا بشريعتهم.
 الصفة الثانية: أنهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون في كل أمورهم.
 ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧)
 وفي هذه الآية الكريمة نجد من صفاتهم:

الصفة الثالثة: أنهم ﴿يَحْنَبُونَ﴾ يبتعدون عن كبائر ﴿الْإِثْمِ﴾ كالبدع واختلاق الشبهات، ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ وهي ناتج القوة الشهوانية.
 الصفة الرابعة: أنهم ﴿إِذَا مَا عَضِبُوا﴾ لأنفسهم، أو في أمر دنيوي ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يتسامحون، ولا يؤاخذون.
 ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨)
 وفي هذه الآية الكريمة، نجد كذلك من صفاتهم:

الصفة الخامسة: أنهم ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ فاتبعوا رسله، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واجتمعوا على دينهم، ولم يتفرقوا فيه.
 الصفة السادسة: أنهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا عليها، وحافظوا على إتمامها في مواعيقتها وأركانها وهيئاتها.
 الصفة السابعة: أنهم ﴿أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا ينفردون برأي، بل يجتمعون عليه، وما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمورهم.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أَمْرُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سَمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَىٰ بَيْنَكُمْ؛ فَظَهَرُ الْأَرْضُ خَيْرَ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِنْ كَانَ أَمْرُكُمْ شَرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَىٰ نَسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرَ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا».

الصفة الثامنة: أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: رزقهم الله ﴿يُفْقُونَ﴾ في طاعة الله.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩)

وفي هذه الآية الكريمة نجد من صفاتهم ما يلي:

الصفة التاسعة: أنهم ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ ووقع عليهم الظلم ﴿هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ممن

ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين، ولا بالدليلين.

ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

(٤٠) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ

يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ

صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لِمِنْ أَعْزَمِ الْأُمُورِ (٤٣)

في هذه الآية الكريمة نجد من صفات الجماعة المسلمة أخيراً:

الصفة العاشرة: أنهم إذا انتصروا ممن ظلمهم، كان انتصارهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِثْلُهَا﴾ فقط من غير زيادة عليها، وإلا صار ظالماً.

وينبغي أن يكون ملحوظاً أن هذا الانتصار، وإن كان مشروعاً لهم، فهو مشفوع بأمرين:

الأول: شرط المماثلة.

الثاني: أن العفو عند القدرة أولى.

ولذلك: يحث ربنا عز وجل على العفو عند القدرة على الانتصار، بل على الصفح أيضاً

إذ يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وهو وعد بالخير، لا يقاس عليه شيء

في التعظيم.

حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ابتداءً، ولا في رد العدوان عن

أنفسهم.

ولكن يلاحظ جيداً أنه ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ وفق هذه الشروط ﴿فَأُولَئِكَ مَا

عَلَيْهِمْ﴾ في المواخذة، أو العقاب ﴿مِّنْ سَبِيلٍ﴾ لأن هذا حقهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ في المؤاخذه والعقاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ ويعتدون عليهم، أو يسلبون حقوقهم، أو ينتهكون حرمتهم، أو ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ نعم: بغير الحق ويتكبرون فيها ويفسدون، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

وفي النهاية: يذكر ربنا بالصبر على الأذى، والصفح والعفو، فيقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، بشرط أن لا يكون في ذلك الصبر تشجيع للمعتدي بزيادة الاعتداء ﴿وَعَفَرَ﴾ وستر السيئة ﴿إِنَّ﴾ صبره ﴿ذَلِكَ﴾ وغفرانه هذا ﴿لِمَن عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ التي ندب الشارع إليها، وأتاب عظيمًا عليها.

هذه صفات الجماعة المسلمة!! من عرفها، وتحلى بها، وحافظ عليها فقد هداه الله، ومن تجاهلها، أو لم يؤمن بها فقد أضله الله:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِّنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِّن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أُولِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يعني ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ من الناس، عن هذه الصفات، ومن ثم لا يتحلى بها، ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أموره ﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إضلال الله له، وهو من الظالمين، ثم يصور الله عز وجل حال هؤلاء الظالمين، الذين أضلهم الله فيقول: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ هؤلاء في يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ وتأكدوا من صدق تهديد الله لهم في الدنيا به ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾ عودوا بنا إلى الدنيا؛ لنعمل صالحًا، فهل لنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾، ولا يكون لهم جواب، ولا إجابة.

﴿وَتَرَنَّهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: النار ﴿خَشِيعِينَ﴾ منكسرين ﴿مِّنَ الذَّلِّ﴾ الذي هم فيه ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِّن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف،

يسترقون النظر إليها، فيفزعون، فيحوّلون بصرهم عنها، ثم يعودون فينظرون من الخوف، ﴿و﴾ هنا ﴿قَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لهم: لقد خسرتم كل شيء، حيث ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وأنتم كذلك من الخاسرين الظالمين، ذوقوا إذن عذاب ظلمكم وكفركم ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿و﴾ عندهما ﴿مَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: ليس لهم ﴿مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾ محبين ﴿يَنْصُرُونَهُمْ﴾ ويدافعون عنهم ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي أمر بعذابهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للنجاة من عذاب الله.

وبعد أن وعد ربنا وأوعد بين المقصود، وطالب به قائلاً:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ﴾ (٤٧)

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ في كل ما دعاكم إليه ﴿مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة، حيث ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: لا يدفع عنكم عذابه أحد، وكذلك ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ﴾ مهرب تهربون إليه من هذا العذاب يومئذ، ﴿و﴾ كذلك ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ﴾ أي: لا تستطيعون إنكار شيء مما فعلتموه.

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى للبشير النذير ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظْتُ إِلَّا عَلَىكَ إِنَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نُّصِيبُهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨)

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يا محمد عن الاستجابة لما دعوتهم إليه، طاعة الله، فلا عليك، ولا تحزن ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظْتُ﴾ تحفظ أعمالهم، وتوفّق سلوكهم، وتلزمهم بما طالبتهم به ﴿إِنَّ عَلَىكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ للرسالة إليهم فقط، واعلم أن نعم الدنيا التي شغلتهم وصرفتهم عن الإيمان بالنسبة لما أعدّه الله لعباده الصالحين في جنات النعيم

كالقطرة بالنسبة إلى البحر، ولذلك سُمِّيَتْ نعم الدنيا ذوقًا، فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ﴿٤٩﴾ نِعْمَةً كَالْغَنَى وَالصَّحَّةِ وَخِلَافِهِ، ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وَطَغَى بِسَبِّهَا،
﴿وَإِنْ نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً﴾ من: فقر، أو مرض، وخلافه، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾
واكتسبته من المعاصي ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ ينسى النعمة، ويذكر النعمة، ويكفر في
الرخاء وفي البلاء، إلا إذا قاوم طبعه، وهذب نفسه، وأدبها بشرع الله.

وينبغي أن لا تغره النعمة فكل النعم من الله، وكل الكون ملك لله، فعلى العاقل أن
يجعلها وسائل لطاعة الله، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ
لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ
عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

نعم، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهن، ومن فيهن، وهو سبحانه المتصرف،
وهو المعطي وهو المانع، فينبغي أن لا يغتر الإنسان بما يصل إليه، حيث إنه من الله
ومن ملك الله، ومن عطاء الله، وهو سبحانه الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ في هذا الكون
كله.

ثم ذكر من أحوال تصرف الخالق في ملكه: أنه يخص البعض من الناس بالإناث،
والبعض بالذكور، والبعض بالذكور والإناث معًا، والبعض يجعله محرومًا من الكل، فقال:
﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بحكمته ﴿إِنِشَاءً﴾ هبة منه تعالى، وإنعامًا على عبده،
﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ منهم الأولاد ﴿الذُّكُورَ﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ يعني يهبه من الصنفين ﴿ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً﴾، ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ
يَشَاءُ﴾ منهم ﴿عَقِيمًا﴾ لا يولد له، ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذا أو
ذاك ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء، لا رادَّ لإرادته، ولا معقب لحكمه، ولا شيء فوق حكمته.

وبعد أن بين المولى كمال علمه، وقدرته، وحكمته أتبعه ببيان إنعامه على أنبيائه بوحيه
وكلامه، فقال الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾
 ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صح ﴿لِبَشَرٍ﴾ أبداً ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿إِلَّا﴾
 على أحد ثلاثة أوجه:

الأول: ﴿وَحْيًا﴾ أي: إلهاماً؛ وقذفاً في القلب، كما أوحى الله إلى أم موسى عليها السلام،
 أو مناماً كما أوحى إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده.
 الثاني: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمع كلام ربه، دون أن يبصر شيئاً، كما حدث
 مع موسى عليه السلام عند طور سيناء.
 الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ هذا المَلَك إلى النبي أو
 الرسول ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمر الله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ الله من الوحي، حيث
 ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، حكيم في
 أفعاله وصنعه.

ولمَّا بَيَّنَّ الله عز وجل على هذا النحو أقسام الوحي قال لحبيبه ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾
 صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ
 اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل الوحي الذي أوحيناه إلى الرسل من قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا
 محمد ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ وتعرف قبل هذا الوحي
 بالقرآن إليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا﴾ تدري ما ﴿الْإِيمَنُ﴾ أيضاً، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي:
 القرآن بوحينا لك إياه ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الذين سبق علم الله
 فيهم أنهم يستحقون الهداية، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِي﴾ لتدعو ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ
 مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو صِرَاطُ ﴿اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وهذا الصراط المستقيم، الذي هو

الإسلام هو من الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَمَنْ فِيهِمَا، وما بينهما، خَلَقًا وَمَلَكًا وَتَصَرُّفًا، ﴿أَلَّا﴾ فانتبهوا وآمنوا، إنه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وترجع إليه كلها، فيفصل في شأنها، وَيُعَذِّبُ الْعَاصِي، وَيُثِيبُ الْمُطِيع.

وبهذا، وعلى هذا النحو: عالجت السورة قضية الوحي منذ النبوات الأولى لتقرر:

وحدة الرسالة، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق، ولتعلن:

القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد ﷺ، وفي الجماعة المؤمنة بهذه الرسالة، ولتكمل إلى هذه الجماعة المؤمنة أمانة القيادة إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ولتبيِّن:

خصائص هذه الجماعة المؤمنة، وطابعها المميز الذي تصلح به للقيادة، وتحمل به هذه الأمانة التي تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العظيم العجيب، وهو الوحي.

جعلنا الله وإياكم وجميع المسلمين من أهل طاعته، ورضوانه.. اللهم آمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

وهي سورة مكية، تعرض جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالج آثار هذه المصاعب في النفوس المؤمنة، وتقرر: حقائق الإسلام وقيمه مكان الخرافات التي كانت راسخة في العقول إذ ذاك، والتي ما يزال الكثير منها باق في بعض العقول إلى اليوم.
وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

يقسم الله تعالى ب: ﴿حَمِّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ﴾ الذي هو القرآن، المبين الواضح، الذي نزل بلغة القوم الذين أرسل خاتم الأنبياء منهم.

وجواب القسم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، فصيحاً بليغاً.

ولكن لماذا هذا القسم والتأكيد؟ حتى يهتمُّون به، ويُقبلون عليه، ويفهمون ما فيه، ويعملون بشرعه وتعاليمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

ثم يبين شأن هذا الكتاب، وعلو منزلته، فقال جل شأنه:

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن الكريم موجود، ومحفوظ ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ وهو اللوح

المحفوظ.

وقد وصف الله تبارك وتعالى اللوح المحفوظ بهذين الوصفين، وهما:

الأول: ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل جميع الكتب.

الثاني: ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا.

ثم وصف ربنا تبارك وتعالى القرآن بوصفين كذلك وهما:

الأول: ﴿لَعَلِّي﴾ أي: عالٍ عن وجوه الفساد والبطلان، كما أنه عالٍ على جميع

الكتب؛ بسبب أنه هو المعجزة، وأنه باق إلى يوم القيامة.

الثاني: ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم في أبواب البلاغة والفصاحة، ومنافع العباد، في الدنيا والآخرة.

وبعد أن بيّن المولى شرف القرآن في الملأ الأعلى؛ لينبّه بذلك أهل الأرض على علوّ منزلته قال تعالى:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ﴿٥﴾

يعني ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ﴾ إنزال ﴿الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وهو القرآن إعراضاً عنكم؛ لأنكم ﴿كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في الجهالة والعناد والتكذيب؟

إنه: من لطفنا لم نفعل ذلك بل أنزلناه، ودعانا المولى إلى الإيمان به، ليهتدي من قدّر الله له الهداية، وتقوم الحجة على من كتب الله عليه الشقاوة.

ثم خفف الله على نبيه من آلام تكذيبهم له، وصبره على تحمّل أذاهم بقوله عز وجل:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

أي: ﴿وَكَمْ﴾ وكثيراً ما ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ السابقين، كما أرسلناك إلى هؤلاء، تدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله.

﴿و﴾ العجيب أن هؤلاء الأولين ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله

كما تدعو أنت هؤلاء ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ويكذبون، كما يستهزئ بك

ويكذبك هؤلاء، فماذا فعلنا بالمكذبين السابقين...؟ ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ السابقين، وهم أشدّ

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من قومك ﴿بَطْشًا﴾ وقوة، ﴿و﴾ قد ﴿مَضَىٰ﴾ وسبق في هذا

الكتاب ذكر الكثير من مثل هؤلاء ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ المكذبين، وألوان عذابهم وإهلاكهم. وتبدأ آيات السورة الكريمة في مناقشة عقائد مكذبي هذه الأمة، وتقيم الحجة عليهم، وتكشف العلل الحقيقية لمواقفهم الخاطئة، وتهدمها. وهذا موقف من مواقفهم في عقيدتهم الفاسدة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلِينَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩)

يعني هم مُقِرُّون بأن خالق السموات والأرض هو الله، ومع ذلك فهم لا يوحدونه، بل يعبدون معه غيره، كما أنهم لا يُقِرُّون بقدرته على البعث.

ويرد الله عليهم بيان فساد عقيدتهم عن طريق ذكر أوصافه التي يعرفونها، فيقول تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠)
 ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾ (١١)
 ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَاللَّائِعِمَّ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢)
 لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣)
 ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤)

وهذه الأوصاف المذكورة للمولى عز وجل في هذه الآيات هي:

الصفة الأولى: أنه خالق السموات والأرض، وأنتم مُقِرُّون بذلك.

الصفة الثانية: أنه هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الزخرف: ٩] الغالب، الذي له كمال القدرة.

الصفة الثالثة: أنه هو ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] المحيط علمه بكل شيء، فله إذاً كمال العلم.

الصفة الرابعة: أنه هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ لِيَتِمَّ الانتفاع بها.

الصفة الخامسة: أنه هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ لِيَسْهُلَ لَكُمْ التنقل بين

أرجائها لتحقيق مصالحكم.

الصفة السادسة: أنه هو ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذا الماء ﴿يَقْدَرُ﴾

يقدره الله تعالى وفق حكمته، وهذا المقدار الذي ينزل ﴿أَنْشَرْنَا﴾

أحيينا ﴿بِهِ﴾ بِلَدَّةٍ مَّيِّتًا بالنبات بعد أن كانت ميتة وخالية منه، وبهذا

الإحياء تستدلون على أنكم ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من القبور،
وتبعثون أحياء يوم البعث من بكرة في عَجَبِ الذَّنْبِ.
الصفة السابعة: أنه هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ وكل ما سِوَى اللَّهِ، خلقه الله
سبحانه وتعالى.

الصفة الثامنة: أنه هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا
تَرْكَبُونَ﴾ عليه، و ﴿لِتَسْتَوُوا﴾ بقدرته وإنعامه ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾
ثم تَذْكُرُوا ﴿بِقُلُوبِكُمْ﴾ نِعْمَةً رَبِّكُمْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إذا أَسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ، ﴿وَتَقُولُوا﴾ بالسنتكم وقلوبكم؛ شكرًا لربكم
﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾
أي: مطيعين ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ صائرون.
وهذا موقف آخر من مواقفهم في عقيدتهم الفاسدة، يقول رب العزة:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا
يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ
عِزٌّ مُّبِينٌ (١٨)

يعني هم قد ﴿جَعَلُوا لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، حيث قالوا: الملائكة
بنات الله، فجعلوهم جزءًا له سبحانه، وبعضًا منه، كما يكون الولد جزءًا لوالده.

وَيُرَدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ببيان فساد عقيدتهم عن طريق طبيعة الإنسان، فيقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ واضح الجحود والكران للنعمة؛ حيث نسب لله الولد.

ثم يفصل في هذا الرد، فيقول مستهزئًا بهم:

﴿أَمْ﴾ بل يدَّعون أنه سبحانه ﴿أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، أهذا يعقل؟ أنه اتخذ
لنفسه البنات ﴿وَأَصْفَنَكُم﴾ وخصكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾.
فقد أعطوا الله الأقل في نظرهم، حيث إنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ بالأنثى وُلِدَتْ له

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ويتوارى من القوم خجلاً من سوء ما بُشِّرَ به، أهذا يعقل؟

﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ﴾ هل مَنْ يتربى في الزينة ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وهنَّ البنات، كالرجال فيما يرون؟ أنهم جمعوا أنواعاً من الكفر، كفر طبيعتهم وكفر نسبتهن الولد إلى الله، وكفر جعلهم ما لله في المقام الأدنى، حيث أعطوه ما يعتبرونه الأقل، وكفر جعلهم أنفسهم في المقام الأعلى، حيث جعلوا لأنفسهم ما يعتبرونه الأفضل، وكفر جعلهم الملائكة: بنات الله.

وهذا موقف ثالث: من مواقف عقيدتهم الفاسدة، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩)

يعني هم ﴿جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ قالوا: (الملائكة بنات الله).

ويردُّ الله عليهم بيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم علمهم بالغيب، فيقول مستنكراً مستهزئاً: ﴿أَمْ هُمْ شَاهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ حتى يكونوا قد عرفوا المشاهدة أنهم إناث؟ أبداً لم يشاهدوا خلقهم؛ لأنَّ ذلك من عالم الغيب الذي لا يعرفه، ولا يطلع عليه إلا الله، على أية حال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ هذه أنَّ الملائكة إناث، في صحائف أعمالهم، وديوان سيئاتهم، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة سؤال حساب وعذاب.

وهذا موقف رابع: من مواقف عقيدتهم الفاسدة، يقول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) أَمْ ءَايَتُهُمْ كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢)

يعني هم عبدوا الملائكة، وتعلَّلوا بمشيئة الله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ أن نترك عبادتهم ﴿مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ ولكنه شاء ذلك، ولا رادَّ لمشيئته.

ويردُ الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم معرفتهم قبل عبادتهم أنَّ هذه بمشيئة الله، وأنَّ ذلك محض اختيارهم وانحرافهم، إذ يقول سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي: بهذه المشيئة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ حتى يتعلَّلوا بها في انحرافهم، ولكنَّ الحقيقة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتقولون على الله تعالى ويكذبون.

﴿أَمْ﴾ هل ﴿ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ فيه بيان مشيئة الله ﴿مَنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل كفرهم هذا، وعبادتهم للملائكة ﴿فَهُمْ بِهِ﴾ أي: بهذا الكتاب، وهذا العلم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وملتزمون؟ كلا، لم نؤتهم كتابًا بذلك، ولا علم لهم.

﴿بَلْ﴾ الحقيقة: أنهم ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أي: وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ بهم، فيما نفعل، وفيما نعبد.

هؤلاء: قومك يا محمد!! وهذه: هي عقائدهم الفاسدة!! وهذا: تقليدهم لآبائهم في العناد والتكذيب، فلا تحزن، ولا تغتم:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣)

﴿وَكَذَلِكَ﴾ الحال ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ وهم كثير، كما أرسلناك إلى أهل مكة تبدأ بهم دعوتك ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: المترفون في قرى الأنبياء هذه، كما قال قومك: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ دين ﴿وَإِنَّا﴾ سنظل ﴿عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أي: على ما كانوا عليه ﴿مُقْتَدُونَ﴾ بهم فيه.

﴿قَالَ أُولُو حِجْثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءَ كَافِرُونَ﴾ (٢٤)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿أُولُو حِجْثِكُمْ﴾ من الدين والشرع ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ لكم ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ من عقيدة فاسدة أتبعونني؟ ﴿قَالُوا﴾ له في تبجح وعناد ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءَ﴾ كلُّكم ﴿كَافِرُونَ﴾ لا نؤمن به ولا نتبعكم.

فماذا كانت النتيجة لهذا التكذيب والعناد؟

﴿فَأَنذَرْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥)

يعني ﴿فَأَنذَرْنَا مِنْهُمْ﴾ لتكذبيهم وعنادهم، حيث أهلكناهم:

﴿... فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَانظُرْ﴾ أيها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ واعتبر حتى لا تكون مثل هؤلاء الهالكين.

ولأن التقليد أمر فاسد، ويؤدي إلى الهلاك يجب التحرُّر منه، والبعد عنه؛ ليكون الإنسان حرًّا في فكره، مستخدمًا لعقله، مستفيدًا بآيات ربه، ودلائل هدايته.

وهذا هو نموذج واقعي حي لهذا الإنسان المتحرُّر من التقليد، المعتمد على البرهان والدليل، وكما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي

فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨)

﴿و﴾ اذكر للمقلدين ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا يعبدون الأصنام تقليدًا ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي: بريء ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام، ﴿إِلَّا﴾ أنني أعبد الله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وحده سبحانه ﴿فَإِنَّهُ﴾ وحده هو الذي ﴿سَيِّدِي﴾ إلى كل خير، ويثبتني عليه.

﴿و﴾ قد ﴿جَعَلَهَا﴾ الله عز وجل أي: كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: ذرية إبراهيم، يعملون بها، ويدعون لها ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ مَنْ شَرَّدَ مِنْهُمْ عَنْهَا ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إليها.

وكان المفروض أن يعود إليها هؤلاء المكذبون، الذين هم من ذرية إبراهيم، ولكنهم بعدَّ بهم العهد، وكثُرَتْ عندهم النعم وقد اغترَّوا بالنعمة، ونسوا المُنعم، وعادوا إلى التقليد.

يقول الله تعالى للنبي ﷺ:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿بَلْ﴾ أكثر من جعل كلمة التوحيد باقية فيهم ﴿مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ﴾ بطول العمر، وكثرة النعم ليعرفوا ربهم، ويوحّدوه، ويعبدوه ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مظهرًا لهم الأحكام والتعاليم والتشريعات النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿وَ﴾ لكنهم ﴿لَمَّا جَاءَهُمُ﴾ الحق مع رسول مبين ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ﴾ سَحَرْنَا بِهِ مُحَمَّد ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ مهما فعل، ومهما دعا ووضح.

وأضافوا إلى مواقفهم السابقة، وأقوالهم الفاسدة موقفًا كله حقد وعناد، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: ﴿وَقَالُوا﴾ معترضين على الله عز وجل ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ غير محمد ﴿مِنَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ بدلًا من هذا اليتيم. وهذا عناد، وتكذيب، وتعليل لكفرهم، والعجيب: أنها - تقريبًا - حجة المعاندين لأصحاب الدعوات نفسها.

وقد ردّ الله عليهم اعتراضهم هذا بقوله عز وجل:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

عجيب أمر هؤلاء الناس المعترضين..!!

﴿أَهُمْ﴾ الذين ﴿يَقْسِمُونَ﴾ ويؤذّعون ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وهي النبوة، أبدًا لا.

يجب أن يعلموا جيدًا أننا نحن الذين جعلنا النبوة في أركل الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا، وأنا ﴿نَحْنُ﴾ الذين ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ﴾ وأرزاقهم، التي

يَغْتَرُّونَ بِهَا، وَيَتَرَفَّعُونَ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ، ويعاندونه، ويكذبونه، ويكفرون بدعوته، ﴿وَ﴾ أَنَا نَحْنُ الَّذِينَ ﴿رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ بالغنَى والصحة والجاه ﴿دَرَجَاتٍ﴾. وذلك ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءً﴾ أي: يسخره ويستأجره في العمل لديه؛ حتى تتم الأعمال، وتسير أمور الحياة، ﴿وَ﴾ أَنَا الَّذِينَ جَعَلْنَا رَحْمَةً ﴿رَبِّكَ﴾ وَهِيَ الثُّبُوءُ، والدين الذي يدعو إليه هذا النبي، وما يوصل إليه من الجنة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، ويغترُّوا به، ويتَرَفَّعُوا ويعاندوا ويكفروا بسببه.

إنهم لو علموا ذلك!! ما قالوا ما قالوه، ولا وقفوا من النبي ﷺ هذا الموقف الذي وقفوه.

هذه الدنيا التي غرتهم، وهذا الحطام الذي بهرهم، وجعلهم يعاندون تافه في نفسه، حقير عند الله، لذلك: يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) ﴿رُزُقُوا﴾ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥)

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في الكفر، بسبب فهم خاطئ، وهو أن عطاءنا النعم للكافرين دليل على محبتنا لهم ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ مصاعد أيضًا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون.

﴿وَ﴾ لجعلنا كذلك ﴿لِبُيُوتِهِمْ أُتُوبًا﴾ من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ جمع سرير، من فضة كذلك ﴿عَلَيْهَا يَتَكُفُّونَ﴾ ويجلسون.

﴿وَ﴾ كل ذلك ﴿رُزُقُوا﴾ زينة من زينة الحياة الدنيا.

وقد دلَّت الآية على أن مِمَّا يفتن بعض المسلمين عن دينهم - والعباد بالله - رؤيتهم للكافرين في النعيم، والرخاء الاقتصادي؛ بما يؤدي بهم إلى الظنَّ بأنَّ الإسلام سبب التأخر، وأنَّ الارتقاء في أحضان هؤلاء الكفار وأنظمتهم طريق للغنَى والتقدم.

لذلك يَرُدُّ الله عليهم هذا الفهم الخاطيء، صيانة لهم عنه، وعن مضاره، فيقول: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ﴾ الذي تراه أيها المؤمن ﴿لَمَّا﴾ ما هو إِلَّا ﴿مَتَكُعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ الزائلة الفانية، ولا قيمة له مع الكفر، ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي: وأما الآخرة وثوابها، فهو ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَذِّخِرُهُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لهم فقط، لا يشاركهم فيه أحد.

هذه تنبيهاتنا، وهذه وصايانا، وهذا ذُكْرُنَا وتذكيرنا. ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ يتعامى ويتغافل ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن ﴿نُفِضَ﴾ انضم ﴿لَهُ شَيْطَانًا﴾ ونسلطه عليه ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ دائم الصحبة، يحمله في الدنيا على المعاصي، ويدخل معه النار يوم القيامة، ما دام بعيداً عن ذكر الله.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: قرناءهم من الإنس ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الهدى، ﴿وَالْغَرِيبَ أَنَّهُمْ﴾ أي: الغريب أنهم أي الإنس المتغافلون ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ وهم في ضلالهم هذا ﴿مُهِتَدُونَ﴾ مثل باقي الناس، بل قد يظنون أنهم أهدى من كثير من الناس!!

ويظل الحال هكذا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ هذا الغافل يوم القيامة، وعرف ضلال ما كان فيه، وسوء ما كان يفعله، وفساد ما كان يعتقده، التفت إلى قرينه الذي حمّله على المعاصي في الدنيا، و ﴿قَالَ﴾ له متحسراً ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ كان في الدنيا ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾، ثم قال له ما أسوأك ﴿فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾ أنت.

وهنا يقول ربنا عز وجل لهؤلاء العصاة الغافلين المتغافلين في الدنيا عن ذكر الرحمن: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ ندمكم، ولا تحسركم على كفركم وظلمكم ﴿إِذْ

ظَلَمْتُمْ ﴿﴾، على أية حال: اعلّموا ﴿﴾ أَنْكُمْ ﴿﴾ وقرناءكم ﴿﴾ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿﴾، وهذه نهاية أصدقاء السوء في الدنيا والآخرة.

كان الكفار كلما دعاهم النبي ﷺ للإيمان ازدادوا عنادًا وكفرًا، لذلك وصفهم الله بعد العشي في عيونهم، والتغافل في قلوبهم بالصمم والعمى، حيث قال مهددًا لحبيبه ﷺ، ومخففًا عنه ألمه لكفرهم:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤١﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ رغمًا عنهم ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ الذين لا بصيرة عندهم، ﴿و﴾ كل ﴿مَنْ كَانَ﴾ هكذا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضح تهديه إلى الإيمان، لا.

لذلك: لا تتألم لعدم إيمانهم وسوف نعذبهم ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وتموت، قبل تعذيبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ في الآخرة، وسترى هذا.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ به من العذاب، وفي الحاليين ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ﴾ وعلى عذابهم ﴿مُقْتَدِرُونَ﴾.

وبعد هذه التهذبة، يأمره ربه بما يأتي فائلاً:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٥﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٦﴾﴾

تفيد هذه الآيات الكريمة أن الله أمر حبيبه بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، واجعله منهج حياتك وحياة

أمتك، ولا تهمل فيه، ولا تستبدل به غيره، حيث ﴿إِنَّكَ﴾ به ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على الحق الواضح والطريق المستقيم.

الثاني: حافظوا عليه، واعملوا به، وأجلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، ولا تفرطوا فيه،

ولا تتبععدوا عنه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ شرف وسبب رفعة وعلو قدر ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لو عملوا به ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن القيام بحقه.

الثالث: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ بالنظر في دعوتهم؛ ليعلم قومك خطأ موقفهم ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حتى يعلم هؤلاء أنه لا يستحق التوحيد، والإخلاص، والعبادة إلا الله وحده، فيؤمنون، ويوحّدون، ويعبدون!!

وإذا كان الكفار قد اعترضوا على نبوة محمد ﷺ بسبب فقره، فإن من قبلهم كان فرعون الذي اعترض على نبوة موسى ﷺ بسبب فقره، ولذلك: فهو طريقة المعترضين على الدعوة والدعاة في كل العصور.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ قبل محمد ﷺ نبيًا ﴿بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يدعوهم إلى الله ﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم، فطلبوا منه الآيات الدالة على صدقه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ معجزاتنا الدالة على صدقه ونبوته ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ويستهزؤون بها، وصرنا نريهم الآيات، ليؤمنوا.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من هذه الآيات ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ليؤمنوا، ولكنهم لم يؤمنوا، ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.. إلخ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم إلى الله، ويؤمنوا.

﴿وَقَالُوا﴾ عندما كنا نسلط عليهم لونا من هذا العذاب يا موسى ﴿يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ﴾

أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴿٥١﴾ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِكَ ﴿٥٢﴾ إِنَّا هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ إِلَى الْإِيمَانِ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ ﴿٥١﴾ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَّاتِ ﴿٥٢﴾ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٣﴾
فِي عَهْدِهِمْ مَعَ مُوسَى بِالْإِيمَانِ إِذَا رَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

وكان الدافع إليهم في هذا الكفر هو غناهم، وفقر الداعية، يكشف ذلك قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمُ آلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ مصر، وأعلن ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ نظرتة هذه لموسى، الداعي إلى الله، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَبْقَوْمُ﴾ انظروا إلي في غيائي، وإلى موسى في فقره، وفكروا وقدروا؛ لتعرفوا من مينا على صواب، ﴿آلَيْسَ لِي﴾ أنا ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ كلها، أرضاً وشعباً، وخيرات ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: من تحت قصوري أنا.

وهنا: ينبغي أن ندرك أن فرعون انتزع المُلْك من المالك الحقيقي - وهو الله تعالى - لنفسه. وسكت شعبه.

فَسَبِّهِمْ قَائِلًا ﴿٥١﴾ أَأَنْتُمْ عَمِيَ ﴿٥٢﴾ فَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٣﴾ هَذَا الْغَنَى الَّذِي أَنَا فِيهِ.

وسكت شعبه، فعاب نبي الله على مرأى ومسمع من الجميع قائلاً: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ لغنائي ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف لفقره ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ في كلامه.

ثم أكد فقر موسى بقوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقاً ﴿أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ يصير بها غنياً عظيماً فنصدقه وتبعه؟ كما أكد ضعفه - كذلك - بقوله ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ به يعززون موقفه ويشهدون له؛ فنصدقه وتبعه؟ وسكت - أيضاً - شعبه.

ولكن لماذا سكت شعبه؟ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

نعم، لأنهم كانوا: خفاف العقول، خفاف الأوزان، لا عقول عندهم يفكرون بها، ولا وزن لهم يفكر فيه هو، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ﴾، ولأنهم كانوا كذلك ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في كفره وباطله الذي هو عليه، وتكذيب موسى ﷺ.

ولكن لماذا كانوا خفافاً؟ ولماذا أطاعوه بهذه السهولة؟

المسألة ليست بهذه السرعة وهذه السهولة، لقد أعدّهم فرعون لهذا الموقف من قبل، لقد أفسدهم وأغرقهم في الشهوات، كما أنه أذلهم بالتعذيب والتخويف حيث: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله. لذلك يقول ربنا رَدًّا عليه وعليهم، مبيّنًا فساد هذه النظرة - نظرة الغنى والفقر للدعاة:

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بمواقفهم هذه ﴿أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وهلكوا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بذلك ﴿سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ يُعتبر به ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ حتى لا يفعلوا مثلهم!!

وهذا.. موقف جديد من مواقف المشركين في كفرياتهم، وعنادهم، وفساد عقيدتهم، حيث يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

لَمَّا نزل قوله تعالى خطاباً للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال واحد منهم لرسول الله ﷺ: أهذا لنا وحدنا أم لكل من عبد من دون الله؟ فقال ﷺ: «هي لكم، ولآلهتكم، ولكل من عبد من دون الله».

فقال الكافر: إذا كانت النصراني يعبدون عيسى، وهؤلاء - كما تقول - في النار، فقد رضينا نحن وآلهتنا أن نكون معهم في النار.

وفهم الكفار أنهم بهذا هزموا النبي ﷺ بهذا الجدل ففرحوا، وارتفعت بالضحك أصواتهم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: من المثل ﴿يَصْذُونَ﴾ أي: يضحكون.

﴿وَقَالُوا﴾ للنبي ﷺ ﴿إِنَّ إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ﴾، وقد رد الله عز وجل عليهم أولاً: بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].
ثانياً: بهذه الآيات التي معنا في هذه السورة، والتي فيها يقول رب العزة للحبيب ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: المثل ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ فقط، وليس بطلب الحق، أو معرفته، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: بل هذه طبيعتهم، وهي الخصومة والعناد.

ثم حدثهم القوي القادر عن عيسى ﷺ أولاً، فقال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من عبادنا، وليس إلهاً، بل هو عبد ﴿أَنْعَمْنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَيْهِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ بخلقنا له من غير أب ﴿مَثَلًا﴾ واضحاً، ودليلاً بيناً على عظيم قدرتنا ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ نختبر به إيمانهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا﴾ بقدرتنا هذه ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: بدلکم أيها المشركون المعاندون ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ بعد أن نهلكهم، لفعلنا !! فهل تعتبرون، وتؤمنون؟

ثم يقول تعالى عن عيسى ﷺ ثانياً :

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾
 ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: نزول عيسى عليه السلام ﴿لَعَلَّمَ﴾ أمانة ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ ودليل على قرب وقوعها.

وفي الحديث: «ينزل عيسى في الأرض المقدسة، ويده حربة، وبها يقتل الدجال، ويأتى بيت المقدس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام، فيقدمه عيسى عليه السلام، ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به».

وبعد هذا الإخبار عن يوم القيامة يقول تعالى لهم ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿فَلَا تَمُوتُ بِهَا﴾ أي: تشكَّنَّ ﴿بِهَا﴾ وهي الساعة، وقرب مجيئها.
 الثاني: ﴿وَاتَّبِعُونْ﴾ أي: اتبعوا هُداي وشرعي، ومنهجي، فإن شرعي ومنهجي
 ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى جنات النعيم.
 الثالث: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عنه؛ حيث ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان
 ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وعن الإيمان بالساعة ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.
 ثم يقول تبارك وتعالى عن عيسى عليه السلام ثالثاً :

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ إِلِيمٍ ٦٥﴾

يعني ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ لبني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، والشرائع الواضحات، ﴿قَالَ﴾ لهم مخبراً بأمرين، ومطالباً بثلاثة:

الخبر الأول: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ من الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ وهي: النبوة وشرائع الإنجيل.
 الخبر الثاني: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ من أمور الدين، وأوضح الصواب، وأرشدكم إلى اتباعه.

وأما الأوامر التي طالبهم فيها، فهي:

الأمر الأول: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ﴾ وآمنوا به.

الأمر الثاني: ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ فيما جئكم به من شرع الله، ثم بين لهم عبوديته لله، وأمرهم.

بالأمر الثالث: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده، و﴿هَذَا﴾ الذي جئكم به ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فلا تحيدوا عنه.

فماذا فعلوا؟

يقول تعالى: ﴿فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، لذلك يهددهم ربنا قائلاً: ﴿فَوَيْلٌ﴾ يوم القيامة ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ إِلِيمٍ﴾.

ولمَّا بين القوي العزيز أن نزول عيسى عليه السلام، من علامات الساعة هدد الكفار بها فقال تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)

أي: لم لا يؤمن هؤلاء الكفار؟ وماذا ينتظرون ليؤمنوا؟ إنهم بموقفهم هذا، وعنادهم هذا ما ﴿يَنْظُرُونَ إِلَّا﴾ مجيء ﴿السَّاعَةِ﴾ وكذلك ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ﴾ في لهوهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بها.

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن بعض أحوال يوم القيامة، فيقول الله جل وعلا:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ أي: الأصحاب والأصدقاء في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الصداقة إذا كانت في الدنيا على المعصية صارت عداوة يوم القيامة، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانت صحبتهم وصداقاتهم على طاعة الله، وهم في الدنيا.

ماذا يكون حال هؤلاء المتقين؟ الجواب:

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) ﴿أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَلَكَهْمُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٢)

ويقال يوم القيامة للمتقين: ﴿يَعْبَادِ﴾ أُبَشِّرُكُمْ وَأُسَعِدُكُمْ بهذه الإنعامات:

الأولى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ من أي شيء.

الثانية: ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ اليوم على أي شيء، لأنكم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدَّقوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بتشريعاتنا ﴿وَكَانُوا﴾ بها عاملين، ولنا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ولأوامرنا متقادين.

الثالثة: ﴿أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون وتُكْرَمُونَ. ويدخلون بالفعل الجنة و﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ فيها ﴿بِصِحَافٍ﴾ أواني ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فيها كل شيء ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته.

الرابعة: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تخرجون منها، ولا تموتون فيها.

﴿وَتِلْكَ﴾ هي ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ فضلاً من الله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من أعمال تبتغون بها رضوان الله وثوابه.

الخامسة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَلَكَهْمُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وبعد أن يحدثنا ربنا تبارك وتعالى عن نعيم المتقين يعرض على مسامع الدنيا كلها - تحذيراً منه - جزاء الكافرين، فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٣) ﴿لَا يُفَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٤) ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥) ﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ (٧٦) ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٧)

حقًا: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ جزاء ما كانوا يعملون مما يُغضب الله، ويُفسد البلاد، ويؤذي العباد.

هذا العذاب الخالد ﴿لَا يُفْتَرُ﴾ أي: لا يُخَفَّف عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يائسون، ساكتون، لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بهذا العذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ بكفرهم ﴿هُمْ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَوْا﴾ من شدة العذاب ويأسهم من رحمة الله!! قالوا: ﴿يَمْلِكُ﴾ وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾!!

أل هذا الحد من العذاب يصلون؟ يتمنون الموت، ولكن بماذا يجيبهم مالك؟

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ مقيمون فيه، لا خروج، ولا موت، بل وعذاب دائم، وهذا ما تستحقون!!

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ نحن الملائكة رسل الله، وأنا واحد منهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ وبيّناه لكم، ووضّحناه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ لا يقبلونه، ولا يعملون به، فعودوا على أنفسكم بالندم والملامة، حيث لا يفيد الندم، ولا تنفع الملامة.

وبعد هذا الوعد بالنعيم المقيم للمتقين، والوعيد بالعذاب المقيم للمجرمين!!

ينذر ربنا عز وجل المشركين، فيقول لهم ولأمثالهم حتى يوم القيامة:

﴿أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

﴿أَمْ﴾ هل ﴿أَمْرُؤَا﴾ وأحكموا ﴿أَمْرًا﴾ في الكيد والإيذاء للدعوة وأهلها؟ ﴿فَإِنَّا﴾ بقدرتنا ﴿مُبْرِمُونَ﴾ أمر إهلاكهم وتعذيبهم.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويظنون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، لذلك يخططون ويدبرون فنون الكيد والإيذاء، ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمع سرهم ونجواهم، ولا يغيب عنا من أمورهم شيء، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل شيء في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه ﷺ: أن يرد عليهم أباطيلهم، حيث يقول له: أولاً:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨١) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢)

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين ﴿إِنْ كَانَ﴾ حقاً ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ كما تزعمون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾، ولكن ليس الأمر كذلك، إذ ليس للرحمن ولد. ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويقولون مما لا يليق بذاته عز وجل.

ثم يقول له ثانياً:

﴿فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣)

﴿فَذَرَّهُمْ﴾ اتركهم ﴿يُخَوِّضُوا﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ كما يريدون ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب، ولا تأبه لأقوالهم فسيعذبهم الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

﴿وَهُوَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أيضاً ﴿إِلَهٌُ﴾ يُعْبَدُ، بل لا يستحق أن يُعْبَدَ سواه، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير هذا الملكوت ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح خلقه.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ سبحانه، وتعظيم، وتنزهه عما يقوله السفهاء، فهو ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خلقاً وتصرفاً، ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ وحده

﴿عَلَّمَ السَّاعَةَ﴾ أي: وقت القيامة، لا يعلمه سواه ﴿و﴾ هو الذي ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة؛ فيجازي كل أحد بما يستحق، فضلاً أو عدلاً.

﴿و﴾ هو الذي ﴿لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الذين يعبدهم المشركون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيره سبحانه ﴿الشَّفَعَةَ﴾ لهم عند العذاب، كما كانوا يزعمون ويقولون في الدنيا، إذا لا يملك الشفاعة عند الله يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: كلمة التوحيد، وآمن، وأطاع الله، واتبع الرسل ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ربهم حقاً.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤَفِّكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾
﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ قائلاً لهم: ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾؟ سيجيبونك قائلين: خلقهم ﴿اللَّهُ﴾، ومع ذلك يعبدون غيره...!!

﴿فَأَنِّي﴾ وكيف مع هذا الإقرار بأن الله هو الخالق كانوا ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ أي: يُصرفون عن التوحيد وعبادة الله؟

﴿وَقِيلَ لَهُ﴾ أي: وقال الرسول ﷺ شاكياً ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ﴾ معاندون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن.

قال رب العزة له: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، واطرك دعوتهم، ﴿وقل﴾ لهم ﴿سَلِّمْ﴾ ولا تخاطبهم بسوء كما يخاطبونك، بل ادفع بالتي هي أحسن، ﴿فسوف يعلمون﴾ ويرون عذابنا في الدنيا وفي الآخرة، وهذا تهديد من الله تعالى، لكل الكافرين، وبشارة للمؤمنين أن تعلق كلمتهم، وأن ينتشر دينهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

سورة مكية، وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾
 هذا قسم وجوابه، حيث يقسم الله تعالى بـ: ﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ وهو
 القرآن الواضح، الموضح أنه سبحانه أنزله في ليلة مباركة ﴿٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴿٤﴾ أي: القرآن
 الكريم ﴿٥﴾ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿٦﴾ وهي ليلة القدر، ثم يقول عز وجل: ﴿٧﴾ إِنَّا كُنَّا بِهِ
 ﴿٨﴾ مُنْذِرِينَ ﴿٩﴾ أي: معلمين الناس به، وفيه ما ينفع الناس، وما يضرهم؛ لتقوم عليهم
 الحجة.

ثم زاد ربنا تبارك وتعالى بيانه لهذه الليلة، فقال عز وجل:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾
 أي: في هذه الليلة المباركة، وهي ليلة القدر ﴿٥﴾ يُفْرَقُ ﴿٦﴾ يُفصل ويُحدد ﴿٧﴾ كُلُّ أَمْرٍ ﴿٨﴾
 من أحوال الكون والعباد ﴿٩﴾ حَكِيمٍ ﴿١٠﴾ أي: محكم.
 ثم زاد ربنا تبارك وتعالى تعظيمه لهذا الأمر، فقال جل وعلا:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾
 أي: هذا الأمر العظيم، الذي يفرق في هذه الليلة ﴿٧﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴿٨﴾ كما اقتضاه علمنا
 وتدبيرنا ﴿٩﴾ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٠﴾ الرسل بالكتب ﴿١١﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴿١٢﴾، حيث ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ﴿١٤﴾
 سبحانه ﴿١٥﴾ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم.

ثم زاد ربنا تبارك وتعالى وصفه لنفسه؛ تعليمًا لنا فقال:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي: جاءت الرسل بالكتب ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٦] ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الخالق لكل شيء، المالك لكل شيء، ﴿إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ مصدِّقين بذلك فآمنوا به.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ سبحانه وتعالى هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ لا يترككم دون إرشاد وهداية. فهل آمنوا، واهتدوا؟ كلا:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: جاءهم الحق، وقامت أمامهم أدلة البعث، ولكنهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ من كل ذلك وهم لاهون ﴿يَلْعَبُونَ﴾ استهزاء بهذا الحق، وبمحمد ﷺ الذي جاء لهم بهذا الحق. لذلك: يهددهم المولى وينذرهم، بقوله سبحانه:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر أيها المؤمن ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ واضح ظاهر عام، وهو علامة من علامات الساعة.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يعم الناس جميعًا، فيصاب المؤمن منه بما يشبه الزكام، ويصير الكافر منه كالسكران، يدخل جوفه، ويخرج من كل منافذ بدنه، وهنا: يقول الكافرون ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم يقولون أيضًا:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ﴾ وخفف وارفع ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿الْعَذَابَ﴾ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. إذا رفعته عنا.

فيكون الجواب:

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف يفنون بهذا الوعد ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ بالحق ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ واضح في عرضه عليهم، واضح في دعوته إليهم.

﴿ثُمَّ﴾ لم يجيبوه بل ﴿تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا ﴿عَنْهُ وَقَالُوا﴾ عنه إنه ﴿مُعَلَّمٌ﴾ من جهة البشر، وليس رسولاً، ولكنه ﴿مَجْنُونٌ﴾.

على أية حال: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: لو كشفنا عنكم العذاب زماناً قليلاً ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ لا محالة إلى الكفر.

انتظروا العذاب الحقيقي الأليم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ في يوم القيامة ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ منكم؛ لكفركم، وعنادكم.

ولمَّا بَيَّنَّ ربنا عز وجل إصرار كفار هذا العصر على الكفر، بَيَّنَّ أن أكثر المتقدمين كانوا كذلك أيضاً، ومن هؤلاء المتقدمين: قوم فرعون.

يقول عنهم القوي العزيز:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِعْبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ اختبرنا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل كفار هذا العصر ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وهم

أهل مصر القدماء.

﴿و﴾ ذلك أن ﴿جَاءَهُمْ﴾ مرسل من عندنا ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ شريف، وهو

موسى عليه السلام، يدعوهم للإيمان. فقال لهم:

أولاً: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ سلّموا لي وأرسلوا معي بني إسرائيل، وخلصوهم من هذا العذاب المهين.

ثانياً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله الذي خلقكم ﴿أَمِينٌ﴾ في رسالتي إليكم، ودعوتي إياكم.

ثالثاً: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فتكبروا على دعوته، وتمنّعوا عن شريعته، وتحاربوا رسله.

رابعاً: ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ﴾ لأثبت لكم صدقي ﴿إِسْطَلْنِ مِيزِينَ﴾ أي: بحجة واضحة على صحة رسالتي.

خامساً: ﴿وَإِنِّي عُدْتُ﴾ واحتميت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ من ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ بالحجارة، وتقتلونني، بسبب هذه الدعوة.

سادساً: ﴿وَأَنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ فلا ألزمكم، ولكن لا تتعرضوا لي بالأذى ﴿فَاعَزِلُونِ﴾ اتركوني وشأني، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

ومع هذه الدعوة القوية، والطلبات الواضحة التي عرضها موسى ﷺ لم يؤمنوا به، ولم ينفذوا منها شيئاً، بل حاربوه، وأذوه، لذلك: دعا عليهم.

يقول المولى سبحانه:

﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ خَجَرُمُونَ﴾ (٢٢)

لا تنفع فيهم نصيحة، ولا يستجيبون لدعوة، ولا يفون بعهدي، وإني أريد الخلاص منهم، والنجاة من شرهم.

واستجاب الله دعاءه!! وأوحى إليه قائلاً:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَاتْرِكْ الْبَخْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

﴿فَأَسْرِ﴾ أي: سر بعبادي، واخرج بهم من مصر ﴿لَيْلًا﴾ لأن فرعون لن يتركهم لك كما طلبت، بل إذا خرجت بهم ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ منهم، يعني: سيتعقبونكم، ويخرجون وراءكم لإعادتكم.

لذلك: إذا وصلت بهم إلى الْبَحْرِ فادخل فيه، ومعك قومك، واتركه ﴿رَهْوَاً﴾

مفتوحًا، كما هو حسب ما صنعنا ذلك، ليدخلوا فيه خلفك، حيث ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فيه بقدرتنا.

وفعل موسى عليه السلام، ونجا، وهلك فرعون الطاغية، وهلك جنده الذين أطاعوه في الباطل، وساعدوه عليه، يقول تعالى عن هؤلاء الهالكين:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِيهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني ترك هؤلاء الهالكون هذه الأشياء الخمسة: الجنات وهي البساتين، وعيون الماء، والزرورع الكثيرة، والمقام الكريم، أي: الإقامة الحسنة الهادئة، والنعمة السابغة التي كانوا يرفلون فيها، ويتفكهون بها، ﴿كَذَلِكَ﴾ شأن المكذبين المجرمين في كل العصور ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه النعم ﴿قَوْمًا﴾ غيرهم ﴿ءَاخِرِينَ﴾، وضاع كل شيء من هؤلاء المجرمين، بل ضاع هؤلاء المجرمون أنفسهم، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ولا من فيهما، بل فرح الجميع بهلاكهم ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: ممن يتأخر عنهم العذاب، أملاً في صلاح حالهم.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن الناجين من ظلم فرعون:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُم مِّنَ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا﴾ بقدرتنا ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ الذي كانوا يعانونه ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: فرعون ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾ متكبرًا متجبرًا ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في كبره وجبروته، وظلمه للآخرين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل لحمل رسالتنا بعد أن نجيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بما سيؤول إليه أمرهم، وميزناهم ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ المعاصرين لهم، من الأمم

الأخرى، والطوائف المتعددة من البشر، لتكون في أيديهم كل وسائل النجاح في حمل الرسالة، وأداء الأمانة.

﴿و﴾ كذلك ﴿ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ﴾ الدالة على صدق نبیهم ﴿مَا فِيهِ بَلَكَاؤٌ﴾ لهم، واختبار لإيمانهم، وتمسكهم برسالتهم، ودوام شكرهم لربهم ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح، لننظر كيف يعملون، ولكنهم عاندوا، وكفروا، وفشلوا في حمل الأمانة، وأداء الرسالة. ثم يعود الكلام إلى كفار هذا العصر، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنُؤَا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين كفروا بالقرآن، وأنكروا دعوة محمد ﷺ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ أيضاً: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ فقط، ولا حياة بعدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، مرة أخرى بعد الموت.

وإذا أردتم أن نؤمن بالبعث ﴿فَأَنُؤَا﴾ لنا الآن ﴿بِآبَائِنَا﴾ الذين ماتوا من قبل ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون من قضية البعث والحساب والجزاء!!

ويرد الله عليهم كلامهم الباطل هذا، مهدداً لهم، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ﴿أ﴾ هؤلاء الكفار ﴿هُمُ خَيْرٌ﴾ في العز الدنيوي ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ﴾ الذين كانوا باليمن ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الأخرى ذات البأس، والعز الذي لا مثيل له...!!

طبعاً قوم تبع والذين من قبلهم كانوا أكثر منهم في متاع الدنيا وعزها.

ومع ذلك لما لم يؤمنوا ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وخرَّبنا بلادهم، وفرَّقناهم شَذَرَ مَذَرَ.

حيث ﴿إِنَّهُمْ﴾ لطغيانهم، وعدم إيمانهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وهذا تعليل لإهلاكهم.

ألا تخافون يا كفار هذا العصر من أن تكون نهايتكم كنهايتهم..؟

وبعد هذا الإنذار والتهديد يقيم الله الحجة عليهم، فيقول الحق جل جلاله:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيشٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: لو لم يكن هناك بعث، كما يقول الكافرون، لكان خلق هذا الكون عبثاً، ودون غاية، ﴿و﴾ لكن ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيشٍ﴾ بهذا الخلق. إننا ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا الحق، ولذلك لا يؤمنون، وينكرون البعث والحساب والجزاء.

وبما أن هناك بعث، وقد ثبت ذلك بوضوح، فإن الله عز وجل يكشف عن بعض غوامض هذا اليوم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين الخلائق جميعاً مؤمنهم وكافرهم، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَتُهُمْ﴾ موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ أي: لا ينفع أحدٌ أحداً، حتى ولا القريب قربه: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَنْجِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿وَلَا هُمْ﴾ في هذا اليوم ﴿يُنصَرُونَ﴾ من أحد يدافع عنهم.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ فهذا من شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض عند ربنا سبحانه وتعالى برحمته وغفرانه، ﴿إِنَّهُمْ﴾ عز وجل ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وينقسم الناس في هذا اليوم إلى فريقين: فريق العصاة، وفريق الطائعين، ويحدثنا رب لعزة عن فريق العصاة وعذابهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٤٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٤٤ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٤٥
 ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ٤٦ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٤٧ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ
 مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ٤٨ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ٤٩ ﴿إِنَّ هَذَا مَا
 كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ٥٠

اللهم نجنا من هذا العذاب الأليم برحمة منك يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.
 ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ التي ينبتها الله في قاع الجحيم، وهي من أخبث الشجر
 المر ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ الأثم في قوله وفعله وهو الكافر، تكون حين يجوع ويأكل منها
 ﴿كَالْمُهْلِ﴾ مثل عكارة الزيت الذي ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ الكافرة ﴿كَغَلِي
 الْحَمِيمِ﴾ الماء الشديد الحرارة.

ويقول تعالى لزيانية الجحيم: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ سوقوه بعنف واسحبوه ﴿إِلَى
 سَوَاءٍ﴾ وسط ﴿الْجَحِيمِ﴾.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ فينزل في بدنه، فيسلت ما في
 بطنه من أمعائه، حتى تنزل من كعبه، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

ثم يقال له تهكمًا به: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب ﴿إِنَّكَ﴾ كنت تقول ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْكَرِيمُ﴾ فلست الآن لا بعزيز ولا بكريم.

ذق ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب هو ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ يا فريق الكفار ﴿بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون
 في حدوثة، وتكفرون به.

ثم يحدثنا رب العزة عن فريق الطائعين ونعيمهم، فيقول المولى سبحانه:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ٥١ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٥٢ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ٥٣ ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ٥٤ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
 فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ ٥٥ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ٥٦ ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٥٧

اللهم أنعم علينا بكرمك وغفرانك وجودك يا رب العالمين، واجعلنا من هؤلاء
 المتقين برحمة منك يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

نعم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ في الجنة، أمِنوا فيه من الخروج منها، أو الموت فيها، كما أمِنوا الهموم والغموم بكل أنواعها.

وهم ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي حدائق وبساتين، وعيون جارية.
وهم ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ﴾ حرير ﴿سُنْدُسٍ﴾ وهو الرقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو السميك، وهم يجلسون ﴿مُنْقَلِبِينَ﴾ مع بعضهم البعض؛ زيادة في الأنس والنعيم.
﴿كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ﴾ أيضاً ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي بالهور الحسنان في الجنان.
وهم ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يطلبون في الجنة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ومتعة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من انتهائها، أو زوالها.

وهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ بل حياة أبدية، ونعيم أبدي، وليس لهم - بذلك - ﴿إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ التي خرجوا بها من الدنيا.

﴿وَقَدْ﴾ الله ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وهذه نعم في حد ذاتها.
كل ذلك ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ عليهم، و ﴿ذَلِكَ﴾ حقيقة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.
﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فليَعْمَلَ الْعَمِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١].

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت به، وهو الحديث عن القرآن الكريم، فيقول تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: القرآن لهم ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الذي هو لسانهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيتعظون، فيؤمنون.

وإذا لم يؤمنوا ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر ما ينزل بهم من العذاب ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ موتك، ليستريحوا منك، وسيعلمون لمن تكون النصرة، والغلبة في النهاية!!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

وهي: سورة مكية، تبدأ بقوله تعالى:

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿حَمْدٌ﴾ من الحروف العربية المقطعة، التي قصد بها القرآن لفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم، ليستمعوا إليه فتصلهم الرسالة، وتلزمهم الحجة.

﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ العظيم، وهو القرآن ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالبه أحد، ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره، وأقواله، وأفعاله، سبحانه وتعالى.

فهل آمنوا به، وعملوا بتشريعاته!!؟

ثم يسوق ربنا عز وجل دلائل على عزته، وقدرته، وحكمته، التي لو عرفها، واعتبر بها كل عاقل: لآمن بالله سبحانه وتعالى، حيث يقول المولى عز وجل:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ تدل على وحدانيته، وعزته، وقدرته،

وحكمته.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ آيات تدل على وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته ﴿و﴾ في ﴿مَا﴾

يُبَيِّنُ ﴿١﴾ يَخْلُقُ وَيَنْشُرُ فِي الْكُونِ ﴿٢﴾ مِنْ ذَابَّةٍ ءَايَتٌ ﴿٣﴾ تَدُلُّ عَلَى: وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ.

﴿و﴾ ﴿٤﴾ فِي ﴿٥﴾ أَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿٦﴾ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى: وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ.

﴿و﴾ ﴿٧﴾ فِي ﴿٨﴾ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴿٩﴾ مَطَرٍ ﴿١٠﴾ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿١١﴾ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ.

﴿و﴾ ﴿١٢﴾ فِي ﴿١٣﴾ تَصْرِيفِ الرِّيحِ ﴿١٤﴾ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى: وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ. وهذه الآيات: يستفيد بها، ويعتبر بمدلولاتها، الذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿يُوقِنُونَ﴾ و ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

يقول المولى عز وجل:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ العظيمة المنظورة في الأنفس والآفاق، والمسطورة في القرآن الكريم ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لتتلوها، وتبلغها للناس، ما لهم لا يؤمنون بها؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ إِذَا ﴿بَعْدَ﴾ حَدِيثِ ﴿اللَّهِ﴾ هذا ﴿وَأَيُّهَا يُؤْمِنُونَ﴾؟

﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿وَبَلِّ﴾ هلاك ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ مبالغ في كذبه.

إنه ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ ليؤمن بها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ لا يؤمن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ نهائياً، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في جهنم يوم القيامة.

﴿وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾ بلغه ﴿أَتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وسخر منها، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهينه، لأنه كان مستكبرًا.

هؤلاء وأمثالهم ﴿مَنْ وَرَأَيْهِمْ﴾ أي: قدامهم وفي انتظارهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها، لا يخرجون منها، ولا يموتون، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ويدفع ويمنع عنهم هذا العذاب، ﴿مَا كَسَبُوا﴾ في الدنيا ﴿شَيْئًا﴾ من مال، أو جاه، أو.. إلخ، ﴿وَلَا﴾ يغني عنهم كذلك ﴿مَا اتَّخَذُوا﴾ في الدنيا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ عبدوهم، ودانوا لهم بالطاعة، ﴿وَلِذَلِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في شدته، وقسوته عليهم.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١)

أي: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿هُدًى﴾ لكل خير، وكل فلاح، في الدنيا والآخرة فاتبعوه، وآمنوا به، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ في الكون وفي القرآن ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ﴾ أشد أنواع العذاب، ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم شديد الإيلام.

وبعد عرض السورة للعديد من آيات الله، الداعية إلى الإيمان، وبعد التهديد الشديد على عدم الإيمان، يقول الحق سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣)

هو ﴿اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بتسخير الهواء والماء، ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿وَذَلِكَ﴾: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ إما بالسفر للتجارة، أو لمصالح أخرى، أو بالغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، أو اللحم الطري وهو السمك، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بهذا التسخير ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم فتؤمنون.

﴿و﴾ هو الله عز وجل، الذي ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس، وأقمار، ونجوم، وماء.. إلى غير ذلك، ﴿و﴾ هو الله عز وجل، الذي سخر لكم كذلك ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة، وشجر، وأنعام، كل ذلك ﴿جَمِيعًا﴾ لمنافعكم، وهذا ﴿مِّنْهُ﴾ إنعامًا عليكم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ كله، وغيره ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون.

ولمَّا كان هذا التسخير، وهذا التذكير داعيًا للإيمان، ثم لم يؤمنوا، وغضب المؤمنون عليهم، وأرادوا قتالهم لهذا الكفر والعناد!! بيد أنهم لقتلهم وضعفهم لا يستطيعون ذلك، أمرهم الله بالصبر قائلاً:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

وهذه الآيات الكريمة: تدريب على الأخلاق الفاضلة، والأفعال الحميدة. أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ واتبعوك ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ لا يؤمنون، وهم الذين ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني أيام عذابه لهم في الدنيا أو في الآخرة، وفي هذا: دعوة للمؤمنين على ترك الجدل بغير طائل، ودون فائدة مع المعاندين، وكان ذلك التوجيه ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله ﴿قَوْمًا﴾ من شأنهم التجاوز عن النزاع بلا فائدة، وهم المؤمنون ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، والصفح طاعة لله، وترك الجدل.

حيث إنه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ عمل ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أساء، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ جميعًا، فيجازي كل واحد بما يستحق.

ثم يرشد ربنا إلى أمر هام يفيد المؤمنين والكافرين، وهو: أن إنزال الكتب ليس بدعًا، وأن ما تقابل به هذه الكتب ليس جديدًا.

حيث يقول عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَآيِنَاهُمْ يَنْتَ مِنْ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ من قبل هذه الأشياء: ﴿الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة، ﴿وَالْحُكْمَ﴾ به بين الناس، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ فكان أنبيأؤهم كثيرين، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أنواعا كثيرة، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانهم، ﴿وَعَآيِنَاهُمْ يَنْتَ مِنْ الْأَمْرِ﴾ أي: معجزات. أمر الدين.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الذي يقتضي اتفاقهم، ووحدة صفهم، وعدم اختلافهم، ولكنهم ما اختلفوا هذا الاختلاف، الذي وقع بينهم إلا ﴿بَغْيًا﴾ وحسداً، وعداوة ﴿بَيْنَهُمْ﴾، فهل يتركهم الله بلا حساب، ولا عقاب؟ أبداً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ عز وجل ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهؤلاء - أي: كفار هذه الأمة - كذلك.

ولمّا كان إعراض بني إسرائيل عن اتباع الحق بسبب البغي والحسد، وكفار هذه الأمة كذلك، بيّن الله لحبيبه وللمؤمنين معه طريق الصواب، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقة، ومنهج ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: من الدين، ﴿فَاتَّبَعَهَا﴾ أنت ومن معك، وتمسك بها، وأعلنها للدنيا كلها، وادع الناس إليها، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق، ولا يؤمنون به، وكل ما عندهم أهواء وبدع من عند أنفسهم أو شياطينهم.

حيث ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا﴾ لن يدفعوا ﴿عَنْكَ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ ينزل

بك، إذا اتبعتهم، ولا تواليهم، ولا تتودد إليهم فإنهم ظالمون، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وَمَنْ يُوَالِهِمْ يَكُونُ مِنْهُمْ، ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فكن وَمَنْ مَعَكَ تَقِيًّا؛ ليكون الله وليك وناصرك.

﴿هَذَا﴾ الكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو القرآن ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ تريهم حقائق الأشياء، وصوابها، ﴿وَهُدًى﴾ لهم من الضلال، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من العذاب، كل ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ منهم أنه الحق، فيتبعونه، ويعملون به لينير بصائرهم، ويهديهم، ويكون رحمة لهم.

وإذا كان الظالمون بعضهم أولياء بعض، والمتقون وليهم المولى سبحانه وتعالى، فلا مساواة إذن بين الفريقين:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

أي: أحسب وظن ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ مارسوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصي ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ في المنزلة عندنا، وفي الثواب منا ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مرضاة لنا ﴿سَوَاءً﴾ أي: مستويين ومتماثلين في ﴿نَحْنُهُمْ وَمَآئِهِمْ﴾ كلا وألف كلا، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما يظنون من هذه التسوية بين الفريقين.

لو كان الأمر كذلك؛ لكان كل شيء عبثًا:

﴿و﴾ لكن ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وبالتالي، فليس في الكون عبث، ولا يستوي الفجار مع الأبرار أبدًا، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خلقها الله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر. ﴿وَهُمْ﴾ جميعًا ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وبهذا ظهر جيدًا أن أهل الهوى لا يستوون مع أهل الهدى، ويبيِّن ربنا تبارك وتعالى أن أهل الهوى الذين اختاروه، وَمَنْ كان هذا شأنهم لا يهتدون، حيث قال الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥)

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني عن الذي ﴿اتَّخَذَ﴾ جعل ﴿إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ يتبع ما يدعو إليه، وكأنه يعبد!! ﴿و﴾ قد ﴿أَصْلَهُ اللَّهَ﴾ عن الهدى ﴿وَعَلَى عِلْمٍ﴾ منه ومعرفة بهذا الهدى!! ﴿و﴾ لذلك ﴿خَتَمَ﴾ الله ﴿وَعَلَى سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع وعظما، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعقل خيرا ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ فلا يبصر حسنا، أيهتدي هذا؟ أبدا ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللَّهِ﴾ إياه؟ لا أحد أبدا يهديه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعظون، فتستقيمون، فتؤمنون!!

﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء الذين جعلوا إلههم هواهم، ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: نموت نحن، ويحيا أولادنا، وهكذا، ﴿و﴾ قالوا أيضا ﴿مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ فليس هناك موت، بل كل شيء من فعل الدهر والزمان، والحقيقة أنهم ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ الذي قالوه ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، ولكنه منهم ظن وتخمين يخالف الحق والواقع، حقا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنا توهميا.

﴿و﴾ كذلك ﴿إِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ ءَايَتُنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا، وقدرتنا، وحكمتنا، والدالة على البعث ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمُ﴾ التي يعارضون بها هذه الآيات، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ هروبا من الإيمان ﴿اتُّتُوا بِآيَاتِنَا﴾ أحياء مرة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في موضوع البعث.

يقول المولى عز وجل رُدَّ عليهم يا محمد:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

قُلْ لَهُمُ ﴿اللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ﴾ هو الذي ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء

أَجَالِكُمْ، ﴿ثُمَّ﴾ هو سبحانه القادر على أَنْ يَجْمَعَكُمْ بعد بعثكم أحياء ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليحاسِبكم، ويجازيكم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنْ القادر على الإحياء والإماتة قادر على البعث والإعادة.

وقل لهم أيضًا:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾
 ﴿وَقُلْ لَهُمْ﴾ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء، بقدرته وحكمته.
 ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وتبعثون ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ المنكرون كل شيء، حيث يصيرون إلى النار.

ولما رد الله عليهم إنكارهم للبعث بدأ في ذكر تفاصيل بعض أحوال يوم القيامة، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَتَرَى﴾ يوم القيامة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ أي: أهل دين ﴿جَاثِيَةً﴾ جالسة على الركب من هول ما ترى ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ منهم ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: كتاب أعمالها؛ فيجتمعون عليه ويسمعون، فيقال لهم ثلاث جمل:

الأولى: ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، على الخير خيرًا، وعلى الشر شرًا.
 الثانية: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ الذي كتبه الملائكة، وهي تسجل عليكم أقوالكم وأفعالكم بأمرنا ﴿يَنْطِقُ﴾ ويشهد ﴿عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، ولا تبديل.

الثالثة: لا تتعجبوا ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونثبتته، في هذا الكتاب الذي ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].
وبهذا يتميز الصالحون من الفاسدين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهنيئاً لهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي﴾ الداعية إلى الإيمان ﴿تُنَالِ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا؟ ﴿فَأَسْتَكْبِرْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ لعدولكم عن الحق إلى الباطل.

أيضاً ﴿و﴾ كنتم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ حق ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، ﴿فُلْتُمْ﴾ منكبين مستهزئين ﴿مَا نَذَرِي مَا السَّاعَةُ﴾ وما نعتقد في وقوعها، ﴿إِنْ نَّظُنُّ﴾ فيها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لا يؤكد حقيقة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ وما نحن بمستيقنين من وقوعها.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٣٤) ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٣٥) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦)

﴿و﴾ هذا جزاء الذين كفروا واستكبروا وكانوا مجرمين، حيث ﴿بَدَأَ﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ عقوبات سيئات ﴿مَا عَمِلُوا﴾ أي قبائح أعمالهم.

﴿و﴾ ليس هذا فقط بل ﴿حَاقَ﴾ ونزل ﴿بِهِمْ﴾ العذاب جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في الدنيا، ﴿وَقِيلَ﴾ لهم وهم في شدة الكرب ﴿الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ﴾ ونترككم في العذاب ﴿كَمَا نَسِفْنَا﴾ وأنكرتم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فلم تعملوا له، ﴿و﴾ لذلك ﴿مَأْوُكُمْ﴾ ومسكنكم ﴿النَّارُ﴾ تقيمون فيها أبداً.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ يمنعون عنكم العذاب.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب..!!

﴿يَأْتِكُمْ﴾ بسبب أنكم ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴿فَلَمْ تَتَذَكَّرُوا﴾.

﴿وَعَرَّيْتُمْ﴾ كذلك ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بيهجتها فاطمأنتم إليها.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ يدخلون جهنم، خالدون فيها ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ﴾.

ولا يطلب منهم العتبي، ومرضاة ربهم؛ حيث فات أوان ذلك، الذي كان مطلوبًا منهم في الدنيا، فلم يفعلوه.

ختامًا، يقول العزيز الحكيم:

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

يعني فاحمدوه إذ هو سبحانه خالق السموات والأرض، فهو ربهما ورب العالمين جميعًا.

﴿وَلَهُ﴾ عز وجل ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾، والعظمة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره،

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الأعداء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله، وأحكامه، وشرعه، وقدره.

أي: فاحمدوه، فهو صاحب الحمد، وكبرّوه فهو صاحب العظمة والمجد والسلطان.

سبحانه جل شأنه هو العزيز الحكيم.
